ابن حنبل وبنو العباس

هو واحدٌ من الأئمة الأربعة الكبار، ومؤسس أحد المذاهب الفقهية الأربعة، شخصٌ غزير العلم، دمث الخلق، قوي الحفظ، فصيح اللسان.. نتكلم هنا عن الإمام أحمد بن حنبل.

لم يختر الإمام أحمد بن حنبل أن يكون ندًا لأحد، بل كلمة الحق التي كان دائمًا ينطق بها ووقوفه في وجه الخطأ الصادر من أي شخص، حتى لو كان خليفة المسلمين، هو الأمر الذي جعل بنو العباس يتخذونه ندًا لهم، ولعل أشد المحن التي تعرَّض لها ابن حنبل مع بنو العباس، هي فتنة خلق القرآن.

بدأت الأزمة عندما تعاظم نفوذ فرقة المعتزلة في عهد الخليفة المأمون، والمعتزلة فرقة كلامية ظهرت في بداية القرن الثاني الهجري في البصرة في أواخر العصر الأموي، وقد ازدهرت في العصر العباسي، وأدت دورًا رئيسًا سواء على المستوى الديني أم السياسي، ولقد غلبت على المعتزلة النزعة العقلية، فاعتمدوا على العقل في تأسيس عقائدهم وقدموه على النقل، وقالوا بالفكر قبل السمع، ورفضوا الأحاديث التي لا يقرها العقل، وقالوا بوجوب معرفة الله بالعقل، ولو لم يرد شرع بذلك، وإذا تعارض النص مع العقل، قدموا العقل لأنه أصل النص، ولا يتقدم الفرع على الأصل، والحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل، فالعقل بذلك موجب وآمر وناهٍ، لذلك فإنهم قد تطرفوا وغالوا في استخدام العقل، وجعلوه حاكمًا على النص، بعكس أهل السنة الذين استخدموا العقل وسيلةً لفهم النص، وليس حاكمًا عليه.

عندما تولَّى المأمون الخلافة، أحاط به المعتزلة، وكان جل حاشيته من رجالهم وأدناهم إليه وقرَبهم نحوه وأكرمهم أبلغ الإكرام، كان السبب في ذلك الميل أنه كان تلميذًا لأبي الهذيل العلاف في الأديان

والمقالات، وأبو الهذيل من رؤوس المعتزلة، ولما عقد المأمون المجالس للمناظرات والمناقشات في المقالات والنحل، كان المعتزلة هم السابقون والبارزون على الخصوم لما اختصوا به من دراسات عقلية واسعة، فكان لهم أثرٌ كبيرٌ في نفس المأمون، يجتبي منهم من يشاء لصحبته ويختار منهم من يريد لوزارته، وخصَّ منهم أحمد بن أبي دؤاد بالرعاية والعطف والتقريب، حتى إنه أوصى أخاه المعتصم بإشراكه معه في أمره.

ولما أحس المعتزلة بهذه المنزلة زينوا له إعلان قوله في خلق القرآن نشرًا لمذهبهم، وليكتسبوا إجلال العامة واحترامهم، وكان السؤال الفلسفي حول ما إذا كان القرآن مخلوقًا أم قديمًا؟ كل الطوائف أجابت بأن القرآن هو الكلمة التي لم تمسها شائبة منسوبة إلى الله العلي، بما يعنى أن القرآن كلام الله ولم يخلق، وكانت المسألة هل القرآن مخلوق، وكان هذا هو موقف ورأي المأمون ومن معه، أم أن القرآن هو كلام الله، فأعلن ذلك عام 212 من الهجرة، وناظر من يغشى مجلس مناظرته في هذا الشأن، وأدلى فيها بحججه وأدلته، وترك الناس أحرارًا في عقائدهم لا يحملون على فكرة لا يرونها ولا عقيدة لا يستسيغون الخوض في شأنها، ولكن بعدها بست سنوات، وهي السنة التي توفي فيها، بدا له أن يدعو الناس بقوة السلطان إلى اعتناق فكرة خلق القرآن، فأراد أن يحملهم على ذلك قهرًا، فابتدأ ذلك بإرسال كتبه، وهو بالرقة، إلى نائبه في بغداد إسحاق بن إبراهيم، يأمره بامتحان الفقهاء والمحدثين ليحملهم على أن يقولوا إن القرآن مخلوق.

أحضر إسحاق بن إبراهيم القضاة والمحدثين وكل من تصدى للفتوى والتعليم والإرشاد فاختبرهم وامتحنهم وأرسل إجاباتهم عن مسألته في خلق القرآن إلى المأمون، فأرسل المأمون كتابًا يبين سخف هذه الإجابات في نظره ويجرح المجيبين، ثم ذكر في هذا الكتاب عقوبات

لمن لم يقل مقالته، إذ أمر بحمل من لم يقل ذلك إليه موثقًا، وقد سارع إسحاق بن إبراهيم إلى تنفيذ رغبته، فأحضر المحدثين والفقهاء والمفتين وفيهم أحمد بن حنبل، والذي لم يذعن لسلطان المأمون، وقال كلمة الحق في وجهه وأنذرهم بالعقوبة الصارمة والعذاب العتيد إن لم يقروا بما طلب منهم ويحكموا بالحكم الذي ارتآه المأمون من غير تردد أو مراجعة، فنطقوا جميعًا بما طلب منهم وأعلنوا اعتناق ذلك المذهب إلا أربعة منهم أصروا على موقفهم إصرارًا جريئًا وهم: أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح والقواريري وسجادة، شُد الأربعة في الوثاق وكبِّلوا بالحديد وباتوا ليلتهم مصفدين في الأغلال، فلما كان الغد، أجاب سجادة إسحاق فيما يدعو إليه، فخلوا عنه وفكوا قيوده، واستمر الباقون على حالهم.

في اليوم التالي أعيد السؤال عليهم وطلب الجواب إليهم، فخارت نفس القواريري وأجابهم إلى ما طلبوا ففكوا قيوده، وبقي اثنان، فسيقا في الحديد ليلتقيا بالمأمون في طرسوس، وقد توفي محمد بن نوح في الطريق، ليتبقى الإمام أحمد بن حنبل فقط.

وبينما الجنود في الطريق بصحبة ابن حنبل، توفي المأمون، ولكنه لم يودع الدنيا من غير أن يوصي أخاه المعتصم بالاستمساك بمذهبه في القرآن ودعوة الناس إليه بقوة السلطان، وبسبب هذه الوصية فإن المحنة لم تنقطع بوفاة المأمون، بل اتسع نطاقها وزادت ويلاتها.

لم يكن المعتصم رجل علم، بل كان رجل سيف، فترك أمر خلق القرآن لأحمد بن أبي دؤاد يدبر الأمر فيه لينفذ وصية المأمون في ذلك، وأحمد بن أبي دواد، هذا هو صاحب الفكرة في حمل الناس على ذلك القول بقوة السلطان وعنف الامتحان، وهو من أشار إلى المأمون بذلك.

عندما توفي المأمون كان أحمد بن حنبل مقيدًا مسوقًا، فأعيد إلى السجن ببغداد حتى يصدر في شأنه أمر، ثم سيق إلى المعتصم واتخذت معه ذرائع الإغراء والإرهاب، فما أجدى في حمله ترغيب ولا ترهيب، فنفذوا الوعيد فأخذوا يضربونه بالسياط المرة بعد الأخرى، ولم يترك في كل مرة حتى يغمى عليه وينخس بالسيف، فلا يحس، وتكرر ذلك مع حبسه نحوًا من ثمانية وعشرين شهرًا، فلما استيئسوا منه وثارت في نفوسهم بعض نوازع الرحمة أطلقوا سراحه وأعادوه إلى بيته، وقد أثخنته الجراح وأثقله الضرب المبرح المتوالي والإلقاء في غيابات السجن، وبعد أن عاد أحمد بن حنبل إلى بيته استقر فيه وكان لا يقوى على السير واستمر منقطعًا عن الدرس والتحديث ريثما التأمت جراحه واستطاع أن يخرج إلى المسجد، فلما رُدَّت إليه العافية وذهبت وعثاء هذه المحنة عن جسمه، وإن كانت قد تركت آثارًا وندوبًا فيه وأوجاعًا في بعض أجزائه، مكث يحدِّث ويدرس بالمسجد حتى مات المعتصم.

عندما تولى الواثق الحكم، أعاد المحنة على أحمد بن حنبل، ولكنه لم يتناول السوط ويضربه كما فعل المعتصم والمأمون من قبل، إذ رأى أن ذلك زاده منزلةً عند الناس وزاد فكرته ذيوعًا ومنع دعوة الخليفة أن تذيع فوق ما ترتب على ذلك من سخط العامة ونقمة من سماهم ابن أبي دؤاد "حشو الأمة"، ولذلك لم يرد أحمد بن أبي دؤاد والواثق من بعد المعتصم أن يعيد الأذى الجسمي، بل منعه فقط من الاجتماع بالناس، فأقام ابن حنبل مختفيًا لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق، وبذلك يكون أحمد بن حنبل قد انقطع عن الدراسة مدة تزيد عن خمس سنوات، بسبب اضطهاد بنو العباس له، وبعدها عاد إلى الدرس والتحديث مكرمًا عزيزًا ترفعه عزة التقى وجلال السن والقناعة والزهادة وحُسن البلاء.

ولي الخليفة المتوكل بعد الواثق فقام بإنهاء تلك المحنة التي وقعت بأهل السنة القائلين بأن القرآن غير مخلوق، وأنهى كل ذلك اللغط

السفسطائي حتى قال فيه إبراهيم بن محمد التيمي قاضي البصرة بأن الخلفاء ثلاثة: أبو بكر الصديق الذي قاتل أهل الردة حتى استجابوا له، وعمر بن عبد العزيز الذي رد مظالم بني أمية، والمتوكل الذي محا البدع وأظهر السنة، كما قال عنه ابن الجوزي بأنه أوقد مصابيح السنة.

بعث المتوكل بعد مضي خمس سنين من ولايته بتسيير أحمد بن حنبل إليه، فلما خرج أحمد بن حنبل إلى المتوكل ردوه من بعض الطريق، ثم توفي إسحاق بن إبراهيم، وولي مكانه ابنه عبد الله بن إسحاق فنقل بعض أعداء ابن حنبل إلى المتوكل، أن أحمد بن حنبل كان يخفي بعض أحفاد علي بن أبي طالب عنده، فكتب المتوكل إلى عبد الله بن إسحاق بأن يحقق في الأمر، فأقسم أحمد بن حنبل أن ما عنده أحدًا من أولئك، وفتش منزله ومنزل ابنه صالح فلم يجدوا فيها أحدًا، فثبتت بذلك براءة أحمد بن حنبل.

استمرت حياة الإمام العصيبة حتى وافته المنية في وقت الضحى من يوم الجمعة في الثاني عشر من شهر ربيع الأول لعام 241 هجريًّا، وهو ابن سبع وسبعين عامًا، ودفن بمقبرة باب حرب، وهذا ما أكده العديد من المؤرخين منهم الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد وياقوت الحموي وابن الجوزي في المنتظم.

رحم الله الإمام أحمد والذي ذاق الويل من خلفاء بنو العباس بسبب كلمة حق قالها في وجه سلطانٍ جائر ليرضي بها رب العالمين.. ولكن السؤال الأخير هنا: إذا كان مذهب المعتزلة هو إعمال العقل، فلماذا لم يعملوه مع الإمام أحمد بن حنبل واتجهوا لأسلوب التعذيب والتنكيل؟!